

الداء والدواء اللقاء التاسع

تكملة [فصلٌ ضررُ الذُّنوبِ في القلبِ كضَرِّ السُّمومِ في الأبدانِ]

❏ وفي الحليّة لأبي نُعيمٍ عن حُدَيْفَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكْتَ بَنُو إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَمَرُوا بِشَيْءٍ تَرَكُوهُ، وَإِذَا هُمَا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ.

❏ وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبَلَةَ بَرِيدُ الْجِمَاعِ، وَالْغِنَاءُ بَرِيدُ الرِّثَاءِ، وَالنَّظْرُ بَرِيدُ الْعِشْقِ، وَالْمَرَضُ بَرِيدُ الْمَوْتِ.

❏ وفي الحليّة أيضًا عن ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ لَا تَأْمَنْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَلَمَّا يَتَّبِعِ الذَّنْبَ أَعْظَمَ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا عَمِلْتَهُ، قَلَّةُ حَيَاتِكَ بَيْنَ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشِّمَالِ - وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ - أَعْظَمَ مِنَ الذَّنْبِ، وَضَحِكَكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِكَ أَعْظَمَ مِنَ الذَّنْبِ، وَفَرَحُكَ بِالذَّنْبِ إِذَا ظَفِرْتَ بِهِ أَعْظَمَ مِنَ الذَّنْبِ، وَحُزْنُكَ عَلَى الذَّنْبِ إِذَا فَاتَكَ أَعْظَمَ مِنَ الذَّنْبِ، وَخَوْفُكَ مِنَ الرِّيحِ إِذَا حَرَّكَتْ سِتْرَ بَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ وَلَا يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَعْظَمَ مِنَ الذَّنْبِ، وَيُحْكَ هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ ذَنْبُ أَيُّوبَ فَأَبْتَلَاهُ بِالْبَلَاءِ فِي جَسَدِهِ وَذَهَابِ مَالِهِ؟ اسْتَعَاثَ بِهِ مَسْكِينٌ عَلَى ظَلَمٍ يَدْرُوهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُعْنَهُ، وَلَمْ يَنْهَ الظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ، فَأَبْتَلَاهُ اللَّهُ.

❏ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَوْزَاعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: لَا تَنْظُرْ إِلَى صَعْرِ الْخَطِيئَةِ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ.

❏ وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: بِقَدْرِ مَا يَصْغُرُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ يَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَبِقَدْرِ مَا يَعْظُمُ عِنْدَكَ يَصْغُرُ عِنْدَ اللَّهِ.

❏ وَقِيلَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى، يَا مُوسَى إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إِبْلِيسُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا أُعِدُّ مِنْ عَصَانِي مِنَ الْأَمْوَاتِ.

وفي المُسنَدِ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذَنْبَ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرِّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: ٤]». وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

❏ وَقَالَ حُدَيْفَةُ: إِذَا أَذَنْبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ كَالشَّاةِ الرِّثَاءِ (السوداء).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ صَالِحِ عَنِ ابْنِ شَهَابٍ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَإِنَّكُمْ أَهْلٌ لِهَذَا الْأَمْرِ مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعَثَ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى هَذَا الْقَضِيبُ بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ لَحَا قَضِيبَهُ فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ يَصِلُدُ».

﴿فإنَّكُمْ أَهْلٌ هَذَا الْأَمْرِ﴾، أي: أَهْلٌ لِيَتَوَلَّى أَمْرَ النَّاسِ فِي الْحُكْمِ "مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ" وَهَذَا شَرْطٌ لِأَهْلِيَّتِهِمْ فِي تَوَلَّى الْحُكْمِ، "فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعَثَ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ"، أي: يُعِيدُكُمْ وَيُرِيْلُكُمْ عَنِ الْوِلَايَةِ "كَمَا يُلْحَى هَذَا الْقَضِيبُ"، أي: كَمَا يُقَشِّرُ الْقَرْعُ مِنَ الشَّجَرِ، فَتُفْصَلُ قَشْرَتُهُ عَنْهُ.

﴿وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ وَهْبٍ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: قَالَ فِي بَعْضِ مَا يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِنِّي إِذَا أُطِعْتُ رَضِيتُ، وَإِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِرَبِّكَتِي نَهَايَةٌ، وَإِذَا عَصَيْتُ عَضِبْتُ، وَإِذَا عَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَالِدِ" .

﴿وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكَيْعٍ حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَدَّ حَامِدَهُ مِنَ النَّاسِ دَائِمًا.

قال النبي - ﷺ -: " من أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ (لَهُ) دَائِمًا" رواه الترميذي

﴿ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: لِيَحْدَرَ امْرُؤٌ أَنْ تَلْعَنَهُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مِمَّ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ فَيُلْقِي اللَّهُ بُعْضَهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

قال النبي - ﷺ -: "وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَعْضَاءُ فِي الْأَرْضِ".

صحيح مسلم

﴿وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَهُ الدَّيْنُ اعْتَمَّ لِذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَعْرِفُ هَذَا الْعَمَّ بِذَنْبٍ أَصَبْتُهُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

﴿وَلَمَّا رَكِبَ ابْنُ سِيرِينَ الدَّيْنُ وَحُبَسَ بِهِ قَالَ: (إِنِّي أَعْرِفُ الذَّنْبَ الَّذِي أَصَابَنِي هَذَا، عَيَّرْتُ رَجُلًا مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَقُلْتُ لَهُ: يَا مُفْلِسُ). وَرَوَى عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ نَحْوَ هَذَا أَنَّ مِنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِشَيْءٍ ابْتَلَى بِهِ.

﴿وَهَا هُنَا نُكِنَةُ دَقِيقَةٌ يَغْلُطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ، وَهِيَ أَهَمُّ لَا يَرَوْنَ تَأْثِيرَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُ تَأْثِيرُهُ فَيَنَسِي، وَيَظُنُّ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعَيَّرُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يُعَيَّرْ حَائِطٌ فِي وُفُوعِهِ *** فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُفُوعِ عُبَارٌ

﴿٣١﴾ وَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَهْلَكَتْ هَذِهِ الْبَلِيَّةُ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَرَاكَتْ مِنْ نِعْمَةٍ؟ وَكَمْ حَلَبَتْ مِنْ نِعْمَةٍ؟ وَمَا أَكْثَرَ الْمُعْتَرِينَ بِهَا الْعُلَمَاءِ، فَضْلًا عَنِ الْجُهَّالِ، وَمَنْ يَعْلَمُ الْمُعْتَرُ أَنَّ الذَّنْبَ يَنْقُضُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا يَنْقُضُ السُّمُّ، وَكَمَا يَنْقُضُ الْجُرْحُ الْمُنْدَمِلَ عَلَى الْعِشْرِ.

﴿٣٢﴾ وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: "اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ فِي الْمَوْتَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا يُغْنِيكُمْ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى".

﴿٣٣﴾ وَنَظَرَ بَعْضُ الْعُبَادِ إِلَى صَبِيٍّ، فَتَأَمَّلَ مَحَاسِنَهُ، فَأَتَيْتِي فِي مَنَامِهِ وَقِيلَ لَهُ: "لَتَجِدَنَّ غَيْبَهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً".

﴿٣٤﴾ هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعْجَلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعْجَلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السِّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ.

﴿٣٥﴾ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيِّ عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: "اللَّهُمَّ لَا تُشِمِّتْ بِي الْأَعْدَاءَ"، ثُمَّ هُوَ يُشِمِّتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ يَعْصِي اللَّهَ، فَيُشِمِّتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلَّ عَدُوٍّ.

﴿٣٦﴾ وَقَالَ ذُو النُّونِ: مَنْ حَانَ اللَّهُ فِي السِّرِّ هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ فِي الْعَلَانِيَةِ.

﴿٣٧﴾ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنِّي لِأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَاتِي، وَأَمْرَاتِي.

﴿٣٨﴾ [فصلٌ من آثار المعاصي]

﴿٣٩﴾ وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْأَثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ، الْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

﴿٤٠﴾ فَمِنْهَا: حِرْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

﴿٤١﴾ وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وُفُورِ فِطْنَتِهِ، وَتَوَقَّدَ ذِكَايَهُ، وَكَمَالَ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْفَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

﴿٤٢﴾ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعِ سُوءِ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ... وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

﴿٤٣﴾ وَمِنْهَا: حِرْمَانُ الرِّزْقِ، وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى

اللَّهِ مَجْلِبَةٌ لِلرِّزْقِ فَتَرْكُ التَّقْوَى مَجْلِبَةٌ لِلْفَقْرِ، فَمَا اسْتَجْلَبَ رِزْقُ اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَدَّاهَا اللَّهُ لِيَأْسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [النحل: 112].

﴿٤٤﴾ وَمِنْهَا: وَخْشَةُ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُؤَارِئُهَا وَلَا تُفَارِئُهَا لَدَّةٌ أَصْلًا، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ لَهُ

لَدَاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا لَمْ تَفِ بِتِلْكَ الْوَخْشَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْسُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَمَا لِحَرْجِ مَيِّتٍ إِيْلَامٌ، فَلَوْ لَمْ تَتْرِكِ الدُّنُوبَ إِلَّا حَذْرًا مِنْ وَفُوعِ تِلْكَ الْوَخْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرْكِهَا.

﴿٤٥﴾ وَشَكَا رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَخْشَةَ يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ:

إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْخَشْتِكَ الدُّنُوبُ ... فَدَعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنَسَ

﴿ وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

﴿ وَمِنْهَا: الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْضُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا أَهْلَ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعُدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مَجَالَسَتِهِمْ، وَحَرَمَ بَرَكَةَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ، وَقَرَّبَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، بِقَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَتَقَوَى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ وَأَقَارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَتَرَاهُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ نَفْسِهِ.

﴿ وَمِنْهَا: تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرِ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، فَمَنْ عَطَلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا، وَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مَسْدُودَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مُعَسَّرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟

﴿ وَمِنْهَا: ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً يَحْسُ بِهَا كَمَا يَحْسُ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ إِذَا اذْهَبَ، فَتَصِيرُ ظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحِسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ الظُّلْمَةُ أَزْدَادَتْ خَيْرَتُهُ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أُخْرِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَمْشِي وَحَدَهُ، وَتَقْوَى هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُو الْوَجْهَ، وَتَصِيرُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

﴿ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَثِقَةً فِي الْبَدَنِ، وَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ وَالْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَثِقَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.

﴿ وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِي تُوهِئُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، أَمَّا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تُوهِئُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكَلْبَةِ. وَأَمَّا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَكُلَّمَا قَوِيَ قَلْبُهُ قَوِيَ بَدَنُهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ - فَهُوَ أضعفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتَخُونُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ فَتَأْمَلُ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسٍ وَالرُّومِ، كَيْفَ حَانتَهُمْ، أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَفَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ؟

﴿ وَمِنْهَا: حِرْمَانُ الطَّاعَةِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ يَصُدَّ عَنِ طَاعَةٍ تَكُونُ بَدَلَهُ، وَيَقْطَعَ طَرِيقَ طَاعَةٍ أُخْرَى، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَرِيقُ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ رَابِعَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَهَذَا كَرَجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أَوْجَبَتْ لَهُ مَرَضَةً طَوِيلَةً مَنَعَتْهُ مِنْ عِدَّةِ أَكْلَاتٍ أَطْيَبَ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

﴿ وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِي تُقْصِرُ الْعُمُرَ وَتَمَحِقُ بَرَكَتَهُ وَلَا بُدَّ، فَإِنَّ الْبِرَّ كَمَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، فَالْفُجُورُ يُقْصِرُ الْعُمُرَ.

﴿ وَقَدْ اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نُفِصَانُ عُمَرُ الْعَاصِي هُوَ ذَهَابُ بَرَكَهٖ عُمَرُ وَحَقَّقَهَا عَلَيْهِ، وَهَذَا حَقٌّ، وَهُوَ بَعْضُ تَأْثِيرِ الْمَعَاصِي. ﴾

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ تُنْقِصُهُ حَقِيقَةً، كَمَا تُنْقِصُ الرِّزْقَ، فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْبَرَكَهٖ فِي الرِّزْقِ أَسْبَابًا كَثِيرَةً تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ، وَلِلْبَرَكَهٖ فِي الْعُمُرِ أَسْبَابًا تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ. مَنِ سَرَّهُ أَنْ يُبْسِطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي آثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحْمَةً. ﴾

﴿ قَالُوا وَلَا تُمْنَعْ زِيَادَةُ الْعُمُرِ بِأَسْبَابٍ كَمَا يُنْقِصُ بِأَسْبَابٍ، فَأَلْأَزَاقُ وَالْأَجَالُ، وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ، وَالصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ، وَالغِنَى وَالْفَقْرُ، وَإِنْ كَانَتْ بِقِضَاءِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ يَقْضِي مَا يَشَاءُ بِأَسْبَابٍ جَعَلَهَا مُوجِبَةً لِمُسَبَّبَاتِهَا مُفْتَضِيَةً لَهَا. ﴾

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: تَأْثِيرُ الْمَعَاصِي فِي مَحَقِّ الْعُمُرِ إِنَّمَا هُوَ بِأَنَّ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ هِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَهَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَافِرَ مَيِّتًا غَيْرَ حَيٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى، { أَمْوَاتٌ غَيْرٌ أَحْيَاءٍ } [سُورَةُ النَّحْلِ: ٢١]. ﴾

﴿ فَالْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَعُمُرُ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ فَلَيْسَ عُمُرُهُ إِلَّا أَوْقَاتُ حَيَاتِهِ بِاللَّهِ، فَتَبْلُكَ سَاعَاتُ عُمُرِهِ، فَالْبُرُّ وَالتَّقْوَى وَالتَّوَعُّدُ تَزِيدُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ عُمُرِهِ، وَلَا عُمُرَ لَهُ سِوَاهَا. ﴾

﴿ وَبِالْجُمْلَةِ، فَالْعَبْدُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاشْتَعَلَ بِالْمَعَاصِي ضَاعَتْ عَلَيْهِ أَيَّامُ حَيَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي يَجِدُ غَيْبَ إِضَاعَتِهَا يَوْمَ يُقُولُ: { يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } [سُورَةُ الْفَجْرِ: ٢٤]. ﴾

﴿ فَلَا يَخْلُو إِذَا أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ تَطَلُّعٌ إِلَى مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ أَوْ لَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ ضَاعَ عَلَيْهِ عُمُرُهُ كُلُّهُ، وَذَهَبَتْ حَيَاتُهُ بِاطِّلَا، وَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ طَالَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ بِسَبَبِ الْعَوَاقِقِ، وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِحَسَبِ اشْتِعَالِهِ بِأَضْدَادِهَا، وَذَلِكَ نُفِصَانُ حَقِيقَتِي مِنْ عُمُرِهِ. ﴾

﴿ وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ عُمُرَ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ وَلَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِإِقْبَالِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَالتَّنَعُّمِ بِحُبِّهِ وَدِرْكَرِهِ، وَإِثَارِ مَرَضَاتِهِ. ﴾

﴿فصلٌ توالد المعاصي﴾

﴿ وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِي تَزْرَعُ أَمْثَالَهَا، وَتُولَدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى يَعْزَّ عَلَى الْعَبْدِ مُفَارَقَتُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا، فَالْعَبْدُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا: اْعْمَلْنِي أَيْضًا، فَإِذَا عَمِلَهَا، قَالَتْ الثَّالِثَةُ كَذَلِكَ وَهَلُمَّ جَرًّا، فَتَضَاعَفُ الرِّبْحُ، وَتَزَايَدَتِ الْحَسَنَاتُ. ﴾

(وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) [الشورى: 23]

﴿ قَالَ السَّعْدِيُّ: مِنْ صَلَاةٍ، أَوْ صَوْمٍ، أَوْ حَجٍّ، أَوْ إِحْسَانٍ إِلَى الْخَلْقِ { نَزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا } بِأَنْ يَشْرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، وَيَسِّرَ أَمْرَهُ، وَتَكُونَ سَبَبًا لِلتَّوْفِيقِ لِعَمَلٍ آخَرَ، وَيَزِدَادُ بِهَا عَمَلُ الْمُؤْمِنِ، وَيَرْتَفِعُ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ، وَيَحْصِلُ لَهُ الثَّوَابُ الْعَاجِلُ وَالْآجِلُ. ﴾

﴿٣٤﴾ وَكَذَلِكَ كَانَتِ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا، حَتَّى تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِحَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، فَلَوْ عَطَّلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ بَأْتُهُ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ، وَتَقَرَّ عَيْنُهُ.

﴿٣٥﴾ وَلَوْ عَطَّلَ الْمُجْرِمُ الْمَعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُسَّاقِ لَيُوقِعُ الْمَعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ يَجِدُهَا، وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا، إِلَّا بِمَا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمَفَارِقَتِهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ حَيْثُ يَقُولُ:
وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ... وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا
وَقَالَ الْآخَرُ:

فَكَانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهِ ... كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْحَمْرِ بِالْحَمْرِ

﴿٣٦﴾ وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُعَانِي الطَّاعَةَ وَيَأْلُفُهَا وَيُحِبُّهَا وَيُؤْتِرُهَا حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ تُوْزُهُ إِلَيْهَا أَزًّا، وَتُحْرِضُهُ عَلَيْهَا، وَتُرْعِجُهُ عَنْ فِرَاشِهِ وَمَجْلِسِهِ إِلَيْهَا. وَلَا يَزَالُ يَأْلُفُ الْمَعَاصِي وَيُحِبُّهَا وَيُؤْتِرُهَا، حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينَ، فَتُوْزُهُ إِلَيْهَا أَزًّا. فَالْأَوَّلُ قَوِيٌّ جَنَدَ الطَّاعَةَ بِالْمَدَدِ، فَكَانُوا مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِهِ، وَهَذَا قَوِيٌّ جَنَدَ الْمَعْصِيَةَ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ.